المهلبي في الادغال

درامة في أربعة مناظر

شخصيات الرواية

العزيز بالله (الخليفة الفاطمي)	بولو — بولو (دليل افريقي)
الحسن بن محمد المهلبي (الرحالة)	عبد الصمد (تابع المهلبي)
أم الصمد (زوجة المهلبي)	واكي صومو (رئيس افريقي)
ابن زريق (تابع المهلبي)	كاماتا (زوجة الحمال)

المنظر الأول

(في قصر العزيز بالله الخليفة الفاطمي بمدينة القاهرة في يوم من سنة ثمان وثمانين وتسعمائة ميلادية وكان حضرة الخليفة والرحالة الحسن بن محمد المهلبي وهما يطالان من شرفة الخليفة هما ابن زريق وعبد الصمد .

العزيز بالله — كنت أود بقاؤك معنا يا ابن محمد لتشترك في الاحتفال بمرور عشر سنوات على تأسيس جامعتنا القاهرة وجامعنا الأزهر ، ولكن ما دمت ترى أن مهمتك أعظم .

المهلبي — أستغفر الله يا مولاي !

العزيز بالله — وإني لأوافقك على ذلك .

المهلبي — عفواً يا مولاي !

العزيز بالله — وما دمت تذكر عليَّ ما قلته منذ البداية لأهيان هذه البلاد عن حسبي ونسبي مقلداً المعز .

المهلبي (مذعوراً) — أنا يا مولاي ؟ ! لا منح الله أن أكون سوى عبدك المخلص يا مولاي !

العزيز بالله (ممازحاً) — لماذا تعمل على اضاعة ثقتي بك يا ابن محمد ؟ !

المهلبي (وجلاً) — أستغفر الله يا مولاي ! ماذا جيت ؟ أستغفر الله ! ما ذنبي يا مولاي ! أستغفر الله ! أتُهون وليّ نعمتي ؟

العزيز بالله (ضاحكاً) — سبق السيف العذل يا ابن محمد !

المهلبي (مذعوراً) — السيف يا مولاي !

العزيز بالله (متبسماً) — ومع ذلك ، سأغفر عنك هذه المرة !

المهلبي (مذهولاً) — شكراً يا مولاي ! شكراً . . . يا ليتني أعرف خطيئتي لأستغفر الله وأستغفرك يا مولاي بقية حياتي !

العزيز بالله — نعم سأصفح عنك على شريطة أن لا تعود إليها .

المهلبي (مقاطعاً) — مولاي ! .

العزيز بالله — اسمع يا ابن محمد ولا تقاطعني بكلمة ، وإلاحقّ عليك غضبي !

المهلبي (بينه وبين نفسه) بصوت خافت — يالله ! ماذا صنعت يا ابن محمد في فعلتك ؟ !

العزيز بالله (متابعاً حديثه) — لماذا تنكر الحقيقة ؟ أنت رجل علم يا ابن محمد . . . . أنت رجالة تنشد المعرفة . منذ سنين نقرت الذهب ، ولوّحت بالسيف كما صنع المعزّ لدين الله أبي ، وأنا الآن فأنا ألوّح بالعلم وأنقر ذهبه كما تصنع أنت تماماً . . . أما الآن فأنا أعزّ بالأزهر وأقطابه ، وبنور العلم الذي يشعّ منه ، وبالقرآن الذي بثثته في مصر ، فزادها جمالاً على جمال . هذان هما حسبي ونسبي الجديدان ، ، ولولاهما لما بعثت في طلبك ، ولما أصبحت عقليتي وعقليتك في صعيد واحد ، ولما تخليت عن تقاليد أسرتي .

المهلبي (مذهولاً ، مقاطعاً) — أستغفر الله يا مولاي ! أستغفر الله ! .

العزيز بالله (متابعاً حديثه) — فلا تتحدث بعد الآن عن أنك « عبدي » المخلص ، فلست عبداً لأحد ، بل أبي وفيّ للعلم والفكر والعقل يحترمك كل انسان ، وتستبق تقفي فيك وحبي لك ما حييتَ وحييت

المهلبي (مطمئناً) — اطال الله بقاءك يا مولاي !

العزيز بالله (متابعاً حديثه) — ليس هذا كل ما عندي فأنت الهٌ جيداً يا ابن محمد.

(تسمع جلبة في الطريق وبرج جوهر مع صياح مذنب : « إن معترف بجنحتي وأتوب الى الله » تكراراً . . . ثم يتناهى الصياح إذ يبتعد وتخف الجلبة)

أسمعت يا ابن محمد ؟ تطلّع من النافذة وقل لي ما الخبر !

(يتجه المهلبي الى النافذة ثم يعود الى حضرة الخليفة)

المهلبي (دهشاً) — هذا مشهد غريب يا مولاي تكاد لا تصدقه عيني ، إذ لم أره قبلاً في حياتي . . . هذا راكب جملاً يدق ناقوساً ويستذئب نفسه أمر عجيب .

العزيز بالله (فرِحاً) — ها ! ها ! ها ! أما أنه عجيب لم تره قبلاً ، فأنت صادق في دعواك ، وهو ما أحمد الله عليه يا ابن محمد ! . . . . لقد كنت أريد محادثتك في هذا الموضوع بالذات ، فاذا بنا نفاجأ بدق الناقوس . . . ها ! ها ! ها ! هذا يا ابن محمد تاجر جشع استعمل سهم الجمهور ، ووفاقاً لأمرنا إزاء أمثاله أركب جملاً على النحو الذي رأيته ليفضح نفسه بنفسه ، وليرثيها ، وليتوب إلى الله والناس . . . . وهذه هي المرة الأولى لتطبيق أمرنا منذ عامين ، فلا عجب إذا لم تسمع به قبلاً ولم تر تنفيذه وقد كنت غائباً عنا لقد كان رادعاً للجشعين يا ابن محمد ، وإني لأحمد الله على أن الشعب بلغ من الحضارة والتهذيب ما جعل في حكم الواقع المألوف الملموس ما تراه من الطمأنينة الشاملة والأمن السابغ .

المهلبي — حقاً يا مولاي ، أطال الله عمرك !

العزيز بالله — في أي بلد آخر رأيت ما تراه هنا من استتباب الأمن بحيث يترك الجوهري حانوته مفتوحاً ، والصيرفي ركنه دون رقابة ، فلا يضيع شيء من الجواهر ولا المال ؟ !

المهلبي — لم أر ولم أسمع يا مولاي شيئاً من مثل هذه الأمانة في أي بلد زرته ، بل غالباً سمعت النقيض .

العزيز بالله — بالأخلاق والتثقيف والرخاء يا ابن محمد تنحسر الآثام وتندثر ، والرخاء لا يقوم إلا على وفرة الانتاج وتنظيمه وحسن تصريفه وعلى العدل الاجتماعي ، وكل علم لا بدّ منه — ما دام علماً سلمياً — لصلاح شؤون العباد . فعلمك يا ابن محمد لا غنى عنه لنا .

المهلبي — أستغفر الله يا مولاي .

العزيز بالله — علمك بتقويم البلدان وما يتصل بذلك من حبك للرحلات في بقاع الأرض المجهولة . . . وقد علمت باعزامك السفر إلى مجاهل السودان فأرسلت في طلبك

لأري أية مساعدة يمكننا تقديمها لك ، ولنذكر لك بعض أمنياتنا .

المهلبي — شكراً يا مولاي ! شكراً ! هذا شرف عظيم . وإني لرهن إشارتك يا مولاي !

العزيز بالله — أما مساعدتنا فتشمل جميع نفقات الرحلة كما تشمل مؤازرتك بالرجال والمائتين من فرساني ، وقد حدثت في ذلك ابن زريق وعبد الصمد ، ففرحا بتفكيري هذا فرحاً عظيماً ، وهما يتمنيان لو قبلتهما في صحبتك .

المهلبي — بأي تعبير أشكر مولاي المعظم ، ولئن أزهرت طينتي فمن فيئه وشمسه ونفحه . فبأي عبق وبأي ألوان ، وبأي رفيق للازهار تشكر الأرض الوفية الشمس السخية ، وقد ألهمتها بالنور والحياة ، كما ألهمتها بالظل والعطر ؟

العزيز بالله — دعنا من هذا الشعر يا ابن محمد ! إن الشكر الوحيد الذي أقبله هو العمل ، فهيء نفسك لرحلتك قريباً ، وأجبني اجابة صريحة : أترضى عن صحبة ابن زريق وعبد الصمد لك ؟

المهلبي — ومن أنا لأختار يا مولاي ؟ إنهما لفارسان مغواران ، وصحبتهما إياي تشرفني في مهمتي وتؤازرني ، بل تدلل ضعفي قوة !

العزيز بالله — حسناً ، والآن لننظر في مهمتك وفي أمنياتنا !

ابن زريق وعبد الصمد — شكراً ، شكراً !

ابن زريق — بإذنك يا مولاي نحمد لابن محمد ثقته بنا ، ونحمد لمولانا دوام نعمته !

العزيز بالله — دعونا من الشكر ، ولننظر في الجد من الأمور . إن دولتنا الفاطمية قوامها — كما ذكرت — العلم والفن والعدل الاجتماعي ، بله الاخاء الوطني الذي يرعى جميع الطوائف برعاية شاملة . وإنه ليهمني في سبيل نشر الاسلام وحضارته جنوباً أن ألمّ إلماماً كافياً بطبيعة السودان وأحواله وأهله ، وهذا ما تستطيعه يا ابن محمد وتستطيع أن تؤلف كتاباً في موضوعه .

المهلبي — بعون الله أرجو أن أحقق أمنية مولاي !

العزيز بالله — أما ما أريده منكم جميعاً فهو مؤازرتي على جلب بعض الوحوش الافريقية حية !

(صيحة دهشة من الثلاثة : « وحوش حية يا مولاي ! »

أجل ! وحوش حية ! لأني أريد إنشاء حديقة طبيعية للحيوانات الغريبة بعاصمتنا !

(صيحة دهشة من الثلاثة : حديقة حيوانات يا مولاي)

العزيز بالله — أجل ! أجل ، وقد فكرت طويلاً في أمرها وسأشرح لكم التفاصيل.

المهلبي — أخشى يا مولاي أن هذا فوق حيلتنا .

العزيز بالله — كلاّ ثم كلاّ ! بل لتكن يا ابن محمد مثل سيف الدولة الذي عفّر الليث بسوطه كما حدّثنا أبو الطيب !

المهلبي (مذعوراً) — أنا يا مولاي !

العزيز بالله — نعم أنت ، وقد أوصيت فعلاً على أقفاص متينة لطائفة من الحيوانات التي أريدها حية !

المهلبي (مخاطباً نفسه في وجل بصوت خافت) — لا حول ولا قوة الاّ بالله ! المهلبي حابس أسد في قفص ؟! (مخاطباً العزيز بالله — أستغفر الله يا مولاي ! إذا أبطت في هذه المهمة فلن أعود إليك ولا جفة مهمة سامحني يا مولاي ، رضي الله عنك !

ابن زريق — ألاّ يرضى مولانا أن يعهد إليّ وإلى عبد الصمد بهذه المهمة ؟

عبد الصمد — إني طوع إشارة مولاي !

العزيز بالله — « على قدر أهل العزم تأتي العزائم » ، وقد كنت أؤثر أن يشرّفه ابن محمد كرجم القافلة بصيد أسدين مثلاً !

المهلبي — (مذهولاً ، متمتماً) أسدان يا مولاي !

العزيز بالله — وإلاّ ، فليمدنا بأسد وفيلين !

المهلبي — (مذهولا) بأسد وفيلين ! بأسد وفيلين ! بأسد وفي . . . .

العزيز بالله — (مقاطعاً) هوّن عليك يا ابن محمد ! سأدع الصيد لهذين الفارسين المتطوعين ، وحسبك ما ستدونه من الوصف لدراساتك المتنوّعة لتلك الأصقاع البكر المجهولة . ومن حيث أن هذه هي رحلتكم الأولى ، ولها ما بعدها ، فسأكتفي هذه المرة ببعض الحيوانات الغريبة ، غير متجاوز عددها العشرة ، دون أن تقحموا الجاموس البري الأسود الذي يقال إنه جدّ متوحش!

المهلبي — عندي يا مولاي جاموسة سوداء عظيمة في المزرعة لا ريب أنها تفرح بالترفي مختلفة إلى حديقة الحيوان التي تدرون تأسيسها يا مولاي ، فلا تحتاج إلى صيد جاموس بري ، وكفى الله المؤمنين القتال !

العزيز بالله — ها ! ها ! ها ! حديقة الحيوان يا ابن محمد التي حسب تصوري مدرسة !

المهلبي (دهشاً) مدرسة يا مولاي لتعليم الجاموس والوحوش ؟ !

العزيز بالله — ها ! ها ! ها ! لا ! لا ! يا ابن محمد بل مدرسة ليتعلم فيها الآدميون من الحيوانات ! . . . .

المهلبي (مذهولاً ، مخاطباً نفسه بصوت خافت) — لعلي فقدت صوابي !

العزيز بالله (متابعاً حديثه) — نعم ، يجب على الناس أن يدرسوا طبائع الحيوان كما يدرسون طبائع النبات وطبائع الانسان ذاته ، فالمعرفة تنير العقل وتهذب المدارك . وستتيح لهم حديقة الحيوان هذه فرصاً للدراسة إلى جانب التسلية . وفي نيتي أن أجعلها شبيهة بالأدغال الطبيعية ، حتى تكون هذه الحيوانات قريبة مطمئنة كأنها في مواطنها الأصلية ، مع الحرص على سلامة الزائرين بوضع الأسوار العالية المتينة . ومن يدري يا ابن محمد فقد تعود إلينا مشغوفاً بهذه الكواسر على غير صلة بها ، فتعينك المدير الأول لهذه الحديقة . . .

المهلبي (مذهولاً ، مخاطباً نفسه بصوت خافت) — يا حفيظ — يا رب !

العزيز بالله (متابعاً حديثه) — وقد تصم بفضل دماثتك أليفة فتطعمها وتداعبها وتلاعبها ، ومن يدري فقد تسا كن أحدها مسروراً !

المهلبي (دهشاً) — أنا يا مولاي الماجز عن صيدها ؟ !

العزيز بالله (متابعاً حديثه) — وتفي إذ تحدثني يا ابن محمد بأنك ستبدل رأيك متى توغلت في السودان وصادقت الوحوش . . . .

المهلبي (مذهولاً ، مخاطباً نفسه بصوت خافت) — والعياذ بالله !

العزيز بالله — ولعلك ستنجح في ترويض الأسود ، فتعود إلينا كالفاتح المنصور راكباً أسداً !

المهلبي — (مخاطباً نفسه ، بصوت خافت) راكباً أسداً ؟ ! والله ضعت أيا ابن محمد !

المنظر الثاني

(في منزل المهلبي قبيل إبحاره إلى السودان ولد جلست زوجته أم السعد تحادثه)

المهلبي — أجل ! خصّص مولانا الخليفة مركباً فسيحاً لنا وقد زودنا بعشرة أقفاص مختلفة الأحجام من قضبان الحديد المتين — لجلب الحيوانات فيها . . . . ولست خائفاً يا أم السعد من الفيل ، ولا من الجاموس الأسود ، فأمرهما هين ، إذ من السهل عليّ مصادقة كليهما ، ولكن ماذا أصنع بالكركدن وبالنمر الأرقط بله الأسد ، وقد قطع عليّ عهداً باطعامها في المركب ، ولست أدري كيف جرى لساني فطلقت له بالطلاق وثورطت في عهد كنت أود الفرار منه ، ولست أدري .

أم السعد — كفى يا مأفون كفى ! أتحلف بالطلاق وتتعهد باطعام الوحوش وأنت هزيل يكفي للقضاء عليه ضحك الأسد أو سعال النمر ؟ ! أجننت يا ابن محمد ؟ إي والله جننت وجن الخليفة قبلك .

المهلبي — لا تسرفي يا حرمة في الملامة حيثما أستأنس بارشادك !

أم السعد — إرشادي ؟ ! وهل أبقيت لي مجالاً للارشاد بعد وقوعك في الفخ يا مجنون ؟

المهلبي — أي فخ يا امرأة ، ومولانا الخليفة يعزني ويباهي بي ويحكم بعودتي راكباً أسداً كالفاتح المنصور ؟ !

أم السعد — (دهشة) راكباً ماذا ؟ !

المهلبي — راكباً أسداً يا حرمة !

أم السعد — أأنت في وعيك يا ابن محمد ؟ . . . . لقد سمعت بين صديقاتي من شكون من جنون أزواجهن لاهون من هذا ، وأحدهم يصادق كبشاً في منزله ويحاكي أصواته ، وأخيراً تمنى أن يشاطره الكبش فراشه ، ولكن زوجته هددته بالشكوى إلى مولانا الخليفة . . . . فأقلع عن غيه ولم يقلع ، ولا يزال ينغصها بمخزعبلاته . . . . وأما أنت ، فلا أدري ماذا أقول فيك يا ابن محمد . . . . وليس غريباً أن تأتي بأسد ليساكننا !

المهلبي — هذا ما أشار به مولانا الخليفة !

أم السعد — هذا يؤيد يقيني في جنون الرجل !

المهلبي — أردت أن أستشير برأيك في ترويض هذه الوحوش ، فلم أظفر الاَّ بتقريعك !

أم السعد — لا تتعب نفسك في هذا التفكير ، فلن تتاح لك الفرصة . . . . فالوحوش كفيلة بترويضك أنت . . . . ولا تخف من أنيابها ستأكلك ، فلا ريب أنها ستعاف لحمك المرّ . . . . وأما قتلك فتكفي لتحقيقه نظرة حرباءة !

المهلبي — أهذا هو التشجيع الذي كنت أنتظره منك ؟

أم السعد — وكيف ترتقب مني تشجيعك إذا كنت تؤثر هجر زوجتك ومنازلك المنيعة ؟ ! ألم تعدني بعد إصابتك بالحمى التي كادت تقضي عليك في رحلتك السابقة إلى قبليا بأن تبتعد عن هذه الأصقاع الموبوءة ؟

المهلبي — أتتقوّلين عليّ يا حرمة ، ولولا هذه الرحلات التي تسخطين عليها لما كنا في الخير الذي تنعمين به ، بل لما أكلنا خبزاً ؟ ! ثم يجب أن تكوني مؤمنة بالله ، فأفريقية في كثير من أصقاعها ذات سماء فريد ، وذات جو معتدل لطيف ، نظراً لارتفاعها عن سطح البحر ارتفاعاً كبيراً حتى عند خط الاستواء ، وهي قليلة الغابات والأدغال خلافاً لما يشاع عنها جهلاً ، ثم إن المرض كالموت قدر ، ولست على أي حال بمطلق نفسي إلى التهلكة !

أم السعد — وهل من تهلكة بعد هذه يا ابن عمّ ؟

المهلبي — لقي يا حرمتي بأني ذاهب إلى جنة الله في أرضه ؟

أم السعد — أيعود آدم إلى الجنة دون حواء ؟ إنّ أخوف ما أخافه يا رجل أحد اثنين لا ثالث لهما ، لأن سلامتك غير منتظرة — إن أخوف ما أخافه هو أن تعود إليّ مهشماً بعد طردك من جنتك المزعومة ، أو أن تستبقي بين زبانية تلك الجنة الشيطانية ، ثم يتفضل عليّ مولانا الخليفة بجاموس بري أسود بديلاً عنك .

المهلبي — إتقي الله ولا تطعني في مولانا أمير المؤمنين !

أم السعد — معاذ الله أن أفعل ذلك ، وقد أصبت بداء الفيل وما إليه من الأدواء . . . . ولكنه غير محال على مولانا الخليفة أن يزوجني بعدك بأحد أصدقائك الأعزاء من الجاموس البري الأسود !

المهلبي — إذن سآخذك معي يا حرمة !

المنظر الثالث

(في قرية سودانية أمام كوخ واكي صومو ، وهو جالس أمريق مقطوع الذراع اليسرى ، ومعه زوجته كاماتا تحدثه . والوقت قبيل الغروب بعد المنظر الاول ببضعة أشهر)

واكي صومو — هذه ضربة حظ ولا شك يا كاماتا ! .

كاماتا — وأي حظ في أن يطلبك هذا العربي متآمراً مع دليله بولو — بولو لتكون رئيس الحمالين وسط الأدغال ؟ وماذا تستطيع أن تصنعه الآن ، وقد فقدت إحدى ذراعيك في معركة الجاموس الأسود ؟ !

واكي صومو — سأكون مشرفاً فقط على النقل . وهذا العربي شهي ، وقد أهدى إلى بولو وزوجته هدايا قيمة ، وأنتظر زيارته إيانا بين لحظة وأخرى ، حاملاً هدايا لنا بينها عقد من المرجان لك لم أر نظيره قبلاً !

كاماتا — وما هي غاية هذا السيد الثري ؟ يظهر أنه ظريف كريم !

واكي صومو — إنه ليس ثريًّا ، ولكنّ بولو — بولو أخبرني أنه من أهل العلم ويمثّل حاكم مصر ، ومعه حاشية من الفرسان . أما قصده فالعلم بجميع شؤون قطرنا والكتابة عنها بلغته لأن هذا من عادتهم !

كاماتا — هذه عادة غريبة !

واكي صومو — والأغرب منها أنهم ينشدون اقتناص حيوانات حية ليأخذوها معهم في أقفاص خاصة !

كاماتا — حسن ! هذه فرصة لنا لنتخلص من دجاجنا بسعر حسن ، ولدينا أقفاص جيدة : ولا أرى غرابة في ذلك ، بل هذه عادة حميدة .

واكي صومو — أي دجاج يا امرأة ؟ ! انهم يلتمسون ما هو أعظم بكثير .

كاماتا (مقاطعة) — إذن تبيعهم ديوكنا الحبشية بثلاثة أضعاف ثمنها بل بأكثر ، إذ لن يجدوا أفضل منها ، ولا ريب أنها ستعتبر عجيبة في بلادهم !

واكي صومو — يا امرأة الأمر جدّ . . . . إنهم يطلبون أن أكون رئيس الحمالين المشرف على عملهم في نقل الوحوش الكاسرة حية سليمة في أقفاص !

كاماتا (مذعورة) — وحوش كاسرة يا واكي ؟ أأرسلت إلينا بلاد الشمال مجموعة

من المجانين !

واكي سومو — أنا يا كساماتا المجنون ، لاني أنا الذي قبلت عرضهم وتعاقدت معهم وقبضت مبلغاً طائلاً منهم يكفي لمعيشتنا في رغد وبحبوحة طول العمر ، والآن أجدني في حيرة لا أعرف كيف أنفذ تعاقدي وأحقق وعدي!

كساماتا — لن يبقى لنا هذا التعاقد عمراً !

واكي سومو — كانت لرئيسهم المسمى المهلبي طلبات كثيرة ، ولكنه اختصرها مكتفياً بالحصول على أسد وفيل وكركدن ونمر وضبع وابن آوى ونمر أرقط وعلى ثلاثة من الجواميس الأسود ! ثم انه .

كساماتا (مقاطعة) — كفى يا أبله ! فلا أنت ولا المهلبي وحاشيته ولا بولو — بولو ورجاله يستطيعون صيد ابن آوى حي ونقله حياً إلى بلاد الشمال ، فكيف تتزلف بهذه الأسماء الرهيبة وتستحل أخذ أموال الناس ؟ !

تسمع أسرات أقدام ومتحدثين قادمين

واكي سومو — كفى يا كساماتا ! انهم قادمون !

(يحضر بولو — بولو ومصحبته المهلبي وابن زرين وعبد الصمد)

واكي سومو — أهلاً بكم !

المهلبي — تحياتنا جميعاً إليك أيتها السيدة واليك أيها الصديق !

كساماتا — أهلاً بكم !

واكي سومو — لماذا تركتهم يتأخرون الى هذه الساعة يا بولو ؟

بولو — بولو — شغلتنا شواغل عديدة يا واكي ، ثم ان هذين التساوسين فتنا بمنظر الأصيل ويمرأى مجالس البابونات على التلول المقابلة ، وأخذ السيد المهلبي يدوّن ملاحظاته على كل ما رآه من نبات وحيوان وجماد !

المهلبي — اني وحدي المذنب يا واكي .. ما أجمل قطركم وكل ما فيه ! لقد ازدحمت أمامي الموضوعات فلا أدري ماذا أتناول وماذا أدع ، ولو علم مولاي الخليفة لأصرّ على أن يحضر معنا عاذج من فأر الصخور أو تيتل الصخور كما تسمونه ، ومن الهرقس أو أرنب الصخر الذي لا ذنب له ، ومن فرس الشيطان وغيرها من الحيوانات

العجيبة ، فحسبنا ما كلفنا به ، واذا شئ علينا صيد الأسد والفيل والنمر فلعلنا نرضي مولانا الخليفة بصيد الجاموس الأسود الوديع !

كاماتا — الجاموس الوديع يا سيدي ؟ ! ... هذا أخطر حيوان عندنا ! وأمامك إحدى ضحاياه زوجي الأبله الذي فقد ذراعه اليسرى بينما كان متعلقاً بشجرة هروباً من الجاموس الأسود الذي كان يداعبه بقطع ذراعه المتدلية ، وبعد أن فرغ من تقطيع صديقه إرباً إرباً ، ومع ذلك يريد أن يقامر معكم بصيده حياً !

المهلبي (مذعوراً) — يا حفيظ يا رب !

واكي سومو — لقد ابتهلت إلى الأرباب ولن يضيع ابتهالي !

كاماتا — لن تنقذك الأرباب ولا الشياطين أمام الجاموس الأسود !

ابن زريق — وهذا ما كان مولانا يستهين به حتى تنازل بقبول ثلاثة منه فقط !

كاماتا — لن تظفروا ولا بذيل واحد منها ! إنه لشديد التوحش ، واسع الحيلة ، خبيث ، ماكر ، جريء ، فظ ، ليست لديه شهامة الأسد الذي قد يترك ضحيته دون الاجهاز عليه !

المهلبي (مذعوراً — يا حفيظ يارب !

عبد الصمد — أظن الأفضل استبدال الجاموس الأسود بالغوريلا ، وقد يفرح به مولانا لحديقته !

كاماتا — الغوريلا يا سيدي ؟ ! هذا شيطان من شياطيننا ! .

المهلبي (مذعوراً) مقاطعاً — أعوذ بالله من الشيطان الرجيم !

كاماتا (متابعة حديثها) والنمر عدو الغوريلا لا يجسر على مهاجمته ، وإنما يتحايل على سرقة أطفاله فقط ! أما زوجي فقد تكون لسر لا أعرفه من مصادقة غوريلا تجوز !

ابن زريق — حسن جداً ! إذن يمكننا أن نأخذه معنا !

واكي سومو — كلا يا سيدي ! كلا ! انه تقمص روح جدي الأكبر !

ابن زريق — تقمص روح جدك !

كاماتا — لا تصدقه يا سيدي فان روح جده تقمصه شخّور يطنّ حولنا في أيام الصيف من كل عام !

المهلبي (دهشاً ، مخاطباً نفسه) — نقشت عقلي والله !

عبد الصمد — كيفما كانت الحقيقة نحن مستعدون لرعاية هذا الغرير لا المغتر وربما خصه مولانا الخليفة بقصر ملكي ومنصب في الوزارة .

بولو — بولو — لا فائدة من هذا الكلام يا سيدي فمقاتلتنا الدينية عزيزة علينا . . . والأولى بنا أن نحتمي داخل البيت ، فإن الأسوار الدائكة غير كافية لحمايتنا ، وقد بدأت الكوامر تجول بعد الظلام !

المهلبي (وجلاً) — الكوامر يا بولو ؟ ! . . . اللهم احمنا يا حارس السماوات والأرض ! وكيف سنعود إذن إلى بغيسنا ؟ !

بولو — بولو — لا عود يا سيدي الليلة ! هلمّ يا جماعة فندخل البيت قبل أن نفاجأ !

المهلبي (وجلاً) نفاجأ ! أأصبحنا محاصرين إذن ، وليست معنا الكمامة من السهام ؟

بولو — بولو — هدىء روعك يا سيدي ! هذه احتياطاتنا المألوفة فحسب ! هلموا بنا إلى الداخل !

(يدخلون البيت)

كاماتا — أتصرون بعد ذلك أيها الشجعان على اقتناص هذه الوحوش ؟

واكي صومو — هذه طبيعة زوجتي يا سادة — الانتقاد والانتقاص دائماً ، ولذلك تعلقت بها وأحببتها ، ولم أجار أخي في زواج أربع صبايا أغريات ، على الرغم مما يمتلكنه من رؤوس المواشي .

المهلبي — يا لله ؟ هذا حال أم الصمد تماماً ، وقد كانت على صواب . . . . يا ليتني سمعت مشورتها ولم أنورط في عهد لا قبل لي به . . . ومع ذلك هربت منها !

واكي صومو — هذا يا سيدي طبع جميع الزوجات الصالحات ! ولتعلم أنه لم يزر القرية أي حيوان مفترس منذ شهور ، وقد فكرت في طريقة بارعة لصيد صغار هذه الحيوانات وبذلك لتحاشى الأذى ، ورعايتكم تكبر هذه الحيوانات في قفركم وقد تصبح أليفة .

المهلبي — بشرك الله بالخير . . . بارك الله فيك يا واكي !

بولو — بولو — هذا يا واكي تعبير السيد المحترم بلغة دينه الخاص ، ومعناه أنه

يطلب إلى الأرباب أن تسعدك !

المهلبي — أما وقد هدأتم روعي فلا تدعوني أنسى هذه الهدايا ، وأرجو أن تقبلها السيدة كاماتا والسيد واكي !

(تسمع صلصلة الحلي والحرز وما إليها)

كاماتا وواكي صومو — شكراً لكرمك يا سيدي !

كاماتا — ما أبدع ما انتقيت يا سيدي ، وان يكن جهاؤه من جهاء أريحيتك !

واكي صومو — وأنتما لسعيدان بإقامتك وصحبك الليلة معنا . وإني لمعترف لك بأننا تمايلنا لاستبقائكم معنا حتى نأنس بظرفكم ، أنتم أهل الشمال ، فانا لم نر مثل ظرفكم من قبل !

المهلبي وابن زريق وعبد الصمد — شكراً ! شكراً !

واكي صومو — ولولا ذلك لما وجد موجب لاستبقائكم هذه الليلة في بيتنا الحقير .

المهلبي — لا تقل هذا أيها الرجل الكريم !

واكي صومو — وبعد العشاء يا سيدي سنسمر بأحاديث الصيد ومخاطرها ونوادرها

المهلبي لا ! لا ! — دعنا من هذا ، فحسبي الأوصاف لقطركم الجميل المدهش الذي لا يكدر مطره برق ولا رعد ، خلافاً لجميع الأقطار التي زرتها .

بولو — بولو صه قلما يأتي إلى القرية نمر أو أسد طلباً للعافية ، ومن السعادة أن نخيفه بالرمح دون الهجوم عليه ، وإلا تعرض مهاجمه للافتراس الأكيد !

المهلبي (خائفاً) — اللهم احفظنا بجاه سيد الخلق !

واكي صومو — لا تخف يا سيدي ، فكل شيء يبشر بالمسرة ، والقرية ممتلئة بالمحاربين ، ثم ان مواشينا في أمان تام !

(تسمع جلبة المواشي في الخارج)

المهلبي — ما هذه الجلبة ؟

واكي سومو — هذا أبو الأشبال ، عليٌّ بالرمح ! هرج ومرج في الداخل) عليٌّ بالرمح !

(يسمع زئير الأسد)

المهلبي (مذعوراً — يخ يخ يخ يرورر ! أنا في جاهك يا رسول الله ! يرورر !

المنظر الرابع

(في الادغال ضحى بعد أسبوع من المنظر الاول ، وقد سارت القافلة كبيرة على رأسها الدليل كاتو — كاتو ، ومن ورائه بالكثيرين من الحاملين وبعدهم بقليل وزادهم وأمتعتهم ، يتزعمهم واكي سومو ، وفي وسط القافلة المهلبي والبارون ابن زريق وعبد الصمد . ويبدأ المنظر بحديث بين ابن زريق والمهلبي ثم يشترك فيه عبد الصمد)

ابن زريق — نحمد الله على سلامتك يا سيدي ، وها هي مخاوفك قد تبددت . . . وحق تلك الليلة التي أرعبتك ومرضت أثرها ، بعد النوبة التي أصابتك مرّت فعلاً بسلام وتراجع ذلك الأسد أمام واكي سومو ، دون أن يمس ماشية واحدة !

المهلبي (مرتجفاً) — لاتذكّرني بتلك الليلة المشؤومة يا ابن زريق ! فلا شعر رأسي يقف ويرتجف كلما تذكرتها !

ابن زريق — نحن جميعاً فداؤك يا سيدي !

عبد الصمد — أجل ! أجل يا سيدي ! ولما كنت وزميلي من فرسان مولانا الخليفة ، فنحن مسؤولان قبل غيرنا عن سلامتك .

المهلبي — بارك الله فيكما !

ابن زريق — هذا صحيح يا سيدي ! ومهما يكن من شيء ، فها نحن بفضل حذق دليلنا بولو — بولو قد أوشكنا أن نظفر بضالتنا من صغار الحيوانات ، وها قد رأيت جميع الطرق التي سلكناها مأمونة . . . وبفضل يقظة مولانا الخليفة واصالة تفكيره لم تتكبد أية مشقة في إحضار الاقفاص معنا على الرغم من ضخامة بعضها ، إذ أن العجل المزودة به تجعل البغال تجرها بسهولة كما ترى يا سيدي !

عبد الصمد — إنه لتوفيق من الله ، والخطة التي رسمها الدليل لخطة بارعة موفقة إن شاء الله . . . . ومن علامات التوفيق تمكنك يا سيدي من إتمام معظم تأليفك ،

ولا ريب أن مولانا الخليفة سيسر به أيّما سرور !

ابن زريق — لا ريب ! لا ريب ! إن هذه الامثال لفاتنة حقا ، وإني لاشعر كأن لها سراً تريد أن تبوح به ، ثم تتردد في إذاعته ثم تتراجع !

عبد الصمد — ما كنت لأرتضي الامتناع عن رؤيتها لو خيّرت من البداية ، مهما يكن الخطر ، فكيف ولا خطر ؟ تبارك ربي وتعالى . . . . وإني لفي حيرة والله من عناد كمامانا زوجة رئيس الحالين واصرارها على التخلي عن هذه الرحلة الجميلة حتى كاد يجن منها زوجها ؟

المهلبي — كأنها أم السعد ، طيّب الله أوقاتها !

ابن زريق — لقد كادت كمامانا تفسد علينا هذه الرحلة بتفلسفها مع أنها امرأة على الفطرة لا تعرف شيئاً من الحياة ولا من الدنيا !

المهلبي (متبسطاً) مثل هذا السارك يجعلني أتساءل أحياناً : هل للنساء حس سادس لا نعرفه نحن الرجال ؟ وهل هو الحدس الصادق ، فيلمحن الحوادث أحياناً قبل وقوعها ؟

ابن زريق — لبعضهن بلا ريب حس سادس كفيل بافساد أعمال بموطن ، وهو يا سيدي نوع من الهوس !

المهلبي (متبسطاً) — ها ! ها ! ها ! طيّب الله أنفاسك يا ابن زريق !

ابن زريق — هذه هي ضحكة العالم الينة الخلوة التي نحب سماعها دائماً !

عبد الصمد — دام انشراحك ورضاك ودامت عافيتك يا سيدي !

ابن زريق — انظر الى القافلة يا سيدي بطولها المديد ورجالها العديدين وعتادها الوافر ، كأنها لأمير من الأمراء ! جعلنا فداءك يا سيدي

المهلبي — هذا بفضل مولانا الخليفة !

ابن زريق — وبفضل اقدامك وثباتك ورجاحتك أيضاً يا سيدي ، لقد أريتنا الجنة عياناً يا سيدي والآن أتمنى أن لا أفارقها وأخشى أن أغضبكم إذا التمست تركي هنا في هذا النعيم !

عبد الصمد — لقد علمت يا سيدي ليلة أمس حلماً جميلاً من مولانا الخليفة وعنك !

المهلبي (متبسطاً) ما عندك يا عبد الصمد !

عبد الصمد — عشرة يا مولاي أنك عدت إلى مصر عود الفاتحين راكباً ثلاثة أسود لا أسداً واحداً ولا أدري كيف تحقق ذلك ، ولكن خيّل إليّ أنك كنت تقفز من ظهر أحدها إلى ظهر الآخر ، بينما كانت الأسود تمشي في وداعة الأرانب .

المهلبي (مستاء) سامحك الله يا عبد الصمد ، لقد جعلتني مهزلة !

عبد الصمد — أستغفر الله يا سيدي ! إني أروي الحلم على علاّته ، وإن خاتمته لمفرحة جداً .

المولى (منبسطاً) — استمر يا عبد الصمد في روايتك !

عبد الصمد — وكانت الموسيقى يا سيدي تصدح أمام موكبك ، وخلفك جميع الوحوش التي اصطدتها ، وقد أبت أن تبقى في محابسها ، فارت في مشية عسكرية بديعة ، وكان الجمهور دهشاً لرؤيتها على هذه الحالة ، ولكنه صفّق لها بحماسة ، حتى إذا ما بلغت سيوان جلالة الخليفة ركعت جميع هذه الحيوانات إذ رأتك تترجل .

المهلبي (مقاطعاً) — عجيب والله !

عبد الصمد (متابعاً) وليس هذا فحسب ، بل ألقى كل منها خطبة وجيزة بالعربية الفصحى كأنها في سوق عكاظ ، ولم يشذ عنها إلاّ الجاموس البرّي الأسود الذي اتهم ظلماً بالوحشية ، فإنه ألقى قصيدة عصماء بزت المعلقات ، حتى قال مولانا الخليفة إنه لو تقدم به الزمن لذكره حتماً أبو الفرج في (الأغاني) لأن قصيدته كانت آية في العذوبة !

المهلبي (مقاطعاً ، مسحوراً) — سبحان المبدع !

عبد الصمد (متابعاً) — ثم نهض مولانا الخليفة وحيّاه مهنئاً ، فتقدم الجاموس نحوك يا سيدي وقبلك ، وقال وعيناه مغرورقتان بالدموع : الفضل يا مولانا الخليفة لابن محمد ، فلولا رعايته لما دخلت بلاطك ، وإنه لجدير بأن يصبح أمير السودان !

المهلبي (مقاطعاً ، مسحوراً) — جميل والله ! جميل ! لأفضّ فوك يا عبد الصمد ! بشرى خير إن شاء الله !

(يسمع صياح يتعالى مديداً « هاهوه ! » « هاهوه ! » « هاهوه ! » كما تسمع جلبة تختلط فيها أصوات الناس بحركة البغال وأصواتها) .

المهلبي (مذعوراً) — ما الخبر يا قوم ؟

(أصوات . العجل الأسود يهاجمنا — اهربوا جميعاً الى رؤوس الاشجار)

المهلبي (مذعوراً) أنقذني يا ابن زربق ! أدركني يا عبدالصمد !

ابن زربق — أنا بأعلى الشجرة يا سيدي ، أسرع قبل أن يبلغك هذا الوحش ، أسرع ، أسرع .

المهلبي (مستغيثاً) — أدركوني يا شباب .

(أصوات . الى رؤوس الاشجار ! الى رؤوس الاشجار ! .)

برلو-برلو (صائحاً بأحد الحالين الذين لا يزال مترجلا) — ويحك يا رجل ! الجج بنفسك ، تسلق أية شجرة ، ألا ترى كيف يفتك الوحش بالبغال ؟ سيلحق بك سريعاً لا لا لا لا تر مه بالسهم ، الجج بنفسك ، الجج بنفسك يا أبله .

ابن زربق — لقد سقط الوحش قتيلا ، لقد أصيب في قلبه ، انها لمعجزة .

عبد الصمد — يا له من بطل ! . يا له من بطل ! . أعظم بهذه الشجاعة ! لقد احتفظ برباطة جأشه كما احتفظ بسهامه ، وهربنا نحن أو عجزنا عن الهروب الكامل الى أعلى الشجر وقد فقدنا سلاحنا جميعه .

كساماتا (متهكمة ، وكانت متنكرة في ثوب حمّال) — انزلوا الآن يا رجال ، وفروا مجلودكم قبل أن يدهمكم وحش آخر .

واكي سومو (مدهوشاً)— ويحك يا امرأة . (دهشة من الجميع : امرأة امرأة)

(مخاطباً الرجال) — هذه حرمتي صاحبتنا متنكرة في زي حمّال .

المهلبي(في اعياء) ـ أما أنا فباق على هذه الشجرة ، بعد أن عانيت في تسلقها ولن أقدر على تسلق غيرها ولن أطيق مواجهة أم السعد .

وأما أنتم ايها الأشاوش فلم يبق الا أن ترجعكم كساماتا في هذه الأقفاص الى مولاتنا الخليفة ! .

[النهاية]